جهود الإمام الخطيب البغدادي في خدمة علوم الحديث

د. الأمين اقريوار أ.محمد أرارو

كلية أصول الدين / جامعة عبد المالك السعدي/ تطوان/ المغرب

الملخص

إن علم الحديث يعتبر من أشرف العلوم وأجلها، كيف لا وهو العلم الخادم للسنة النبوية الشريفة التي تعد المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، فهي مبينة لمجمله، ومضيفة إليه ما لم يذكر فيه، مخصصة لعامه ومقيدة لمطلقه.

وقد اهتم العلماء اهتماما كبيرا بالحديث النبوي تصحيحا وتضعيفا، جرحا وتعديلا، شرحا وتعليقا، توجيها وتسديدا، تعلُّما وتعليما، دراسة وتأليفا، تخريجا وتحقيقا، حتى أصبح هذا العلم في متناول كل من طلبه، بفضل جهود هؤلاء الأكابر الثقات والأئمة الأعلام من الحفاظ والنقاد.

كما برزت شخصيات عظيمة لها حضورها الوازن في خدمة الحديث النبوي وعلومه عبر كل العصور، وكان لها الفضل الكبير والخير العميم في هذا المجال، ومن تلك الشخصيات الفذة في تاريخ الأمة الإسلامية؛ "الإمام الخطيب البغدادي" الذي لا يمكن لمشتغل بالسنة النبوية وعلومها ألا يعتمد على جهوده الكبيرة في هذا المجال، فهو فارس من فرسان هذا الميدان الكبار، لم يترك فنا من فنون علم الحديث إلا وألف فيه، فأبدع وأفاد رحمه الله تعالى.

وفي هذا البحث حول (جهود الإمام الخطيب البغدادي في خدمة علوم الحديث) سأحاول الحديث في محورين:

*المحور الأول– معالم من السيرة العلمية للإمام: الخطيب البغدادي.

المحور الثاني– قراءة في جهود الخطيب البغدادي وإبراز منهجه والوقوف على نماذج من مصنفاته.

The Efforts of Imam Al-Khatib Al-Baghdadi in the Service of Hadith Sciences

Dr. Al-Amin Agriwar A. Mohammad RA R. W
College of Fundamentals of Religion / University of Abdel MalekAl -Saadi / Tetouan / Morocco

Abstract

This The science of hadith is considered one of the most noble and honorable sciences, how not, and it is knowledge that serves the Sunnah of the ProphetSharifa, which is the second source of Islamic law after the Holy Century, as it is indicated for its entirety, and its host. To him that which is not mentioned in it, dedicated to his year and restricted to his absolute.The scholars have paid great attention to the hadith of the Prophet as correct and weakening, wound and amendment, explanation and comment. Instructions and guidance, for what and teaching, study and authorship, output and investigation, so that this science became accessible to all. Who asked him, thanks to the efforts of these trusted elders, prominent imams and critics.

Great personalities have also appeared in the service of the Prophet's hadith and its sciences throughout all ages.And she had the great merit and the general good in this field, and one of those extraordinary personalities in the nation's historyIslamic; "Imam Al-Khatib Al-Baghdadi" who does not work with the Sunnah and its sciences can. His great efforts in this field, as he is one of the knights of this great field, he did not leave an art of science. The hadith was not written in it, so he innovated and reported, may God Almighty have mercy on him.

In this research on (the efforts of Imam al-Khatib al-Baghdadi in the service of hadith sciences) I will try to talk in two axes:
The first axis - milestones from the scientific biography of the Imam: Al-Khatib Al-Baghdadi. The second axis - a review of the efforts of Al-Khatib Al-Baghdadi, highlighting his method, and studying examples of his works.

المحور الأول: معالم من السيرة العلمية للإمام الخطيب البغدادي

الفقرة الأولى: ترجمة مختصرة للإمام الخطيب البغدادي[١]

الإمام الخطيب البغدادي هو أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي، ولد سنة: (٣٩٢هـ)، ونشأ في بيئة دينية صالحة في قرية درزيجان بالعراق، وبدأ رحلته العلمية وهو صغير السن، فسمع وهو ابن عشر سنين، ورحل إلى البصرة، ثمَّ إلى نيسابور، ثمَّ إلى الشام، فمكة وغيرها من البلدان، فتلقَّى العلم من فحول علماء عصره منهم: أبو الطيب الطبري وأبو إسحاق الشيرازي وأبو الحسين المحاملي وأبو نصر ابن الصباغ وأبو عبد الله الصوري، أبو جعفر السمناني وغيرهم.

واستمرَّ أبو بكر الخطيب في الطلب حتى عظم زاده، فجمع المجد العلمي وبلغ ذروة السمو الفكري، فكان متفوّقًا في الحديث وعلومه حفظًا وإتقانًا وضبطًا، فضلًا عن كونه فقيهًا محقِّقًا، ومؤرِّخًا ثقةً أديبًا بارعًا، قال عنه الذهبي: "كتب الكثير، وتقدَّم في هذا الشأن، وبَزَّ الأقران، وجمع وصنَّف، وصحَّح وعلَّل، وجرَّح وعدَّل، وأرَّخ وأوضح، وصار أحفظ أهل عصره على الإطلاق".

سماعه للحديث والفقه: سمع وهو ابن إحدى عشرة سنة، وارتحل إلى البصرة وهو ابن عشرين سنة، وإلى نيسابور وهو ابن ثلاث وعشرين، وإلى الشام ومكة وغيرها من البلدان، وسمع من أبي عمر الفارسي وأحمد ابن محمد بن الصلت الأهوازي وإبراهيم بن مخلد وأبي الفضل التميمي وأبي القاسم الحسن بن الحسن بن المنذر وغيرهم، وسمع بنيسابور من القاضي أبي بكر الحيري وأبي سعيد الصيرفي والحافظ أبي حازم العبدوي وكثيرين غيرهم[٢]. وقال ابن النجار في ترجمة الخطيب: نشأ ببغداد وقرأ القرآن بالروايات وتفقه وعلق شيئًا من الخلاف، وآخر من حدث عنه بالسماع محمد بن عمر الأرموي القاضي. قلت: وآخر من حدث عنه بالإجازة مسعود بن الحسن الثقفي الذي انفردت بإجازته عجيبة بنت الباقِداري، ثم طعن أبو موسى المديني في نقل إجازة الخطيب لمسعود فتورع الرجل عنها"[٣].

الفقرة الثانية: امتحان الخطيب البغدادي وابتلاؤه

ابتلي الحافظ الخطيب العراقي ابتلاء كبيرا كغيره من الأئمة المخلصين، فقد ذُكِرَ في سبب خروجه من دمشق، أن صبيا مليحا كان يختلف إليه فتكلم فيه الناس وكان أمير البلد رافضيًّا متعصبًا فجعل ذلك سببًا للفتك بالخطيب، فأمر صاحب شرطته أن يأخذ الخطيب بالليل ويقتله وكان سنيًّا، فقصده تلك الليلة في جماعته فأخذه وقال له بما أمر به ثم قال: لا أجد لك حيلة إلا أنك تفر منا وتهجم دار الشريف بن أبي الحسن العلوي وأنا لا أطلبك وأرجع إلى الأمير فأخبره، ففعل ذلك، فأرسل الأمير إلى الشريف أن يبعث به فقال له: أيها الأمير أنت تعرف اعتقادي فيه وفي أمثاله، وليس في قتله مصلحة وهو مشهور بالعراق، إن قتلته قتل به جماعة من الشيعة وخربت المشاهد، قال: فماذا ترى؟ قال: أرى أن تخرجه من بلدك؛ فأمر بإخراجه فذهب إلى صور وأقام بها مدة.

قال ابن السمعاني: خرج من دمشق في صفر سنة سبع وخمسين فقصد (صور) –اسم مدينة– وكانيزور منها القدس ويعود، إلى أن سافر إلى العراق سنة اثنتين وستين وذهب إلى طرابلس ثم إلى حلب وبقي بها أيامًا. وقال المؤتمن الساجي: تحاملت الحنابلة على الخطيب حتى مال إلى ما مال إليه"[٤].

يتبين من سياق كلام الإمام مؤتمن الساجيأن المقصود من تحاملهم عليه هو؛ مشاركتهم في هذه الحملة التي اتهم فيها الخطيب البغدادي وسعي به مما أدى إلى خروجه من بلده، وقد نقل الإمام الذهبي عبارة المؤتمن الساجي في كتابه تاريخ الإسلام في هذا السياق: "تحاملت الحنابلة على الخطيب حتى مال إلى ما مال إليه. فلما عاد إلى بغداد حدث " بالتاريخ..."[٥].

ويزيد الأمر اتضاحا بما ذكره الإمام ابن عساكر رحمه الله عند ترجمته للحسين بن علي أبي علي المقرئ المعروف بالدمشقي، حيث قال: وبلغني أنه كان رافضيا وهو الذي سعى بأبي بكر الخطيب إلى أمير الجيوش وقال هو ناصبي يروي فضائل الصحابة وأخبار خلفاء بني العباس في الجامع فكان ذلك سبب إخراج الخطيب من دمشق[٦].

الفقرة الثالثة: مناقبه وثناء العلماء عليه

أولا: مناقبه وكراماته

قد ذكرت لنا كتب التاريخ عدة مناقب وكرامات لهذا الإمام الجليل أذكر نبذة مختصرة منها:

فمن مناقبه ما ورد في كتب التاريخ؛أن الإمام الخطيب البغدادي رحمه الله لما حَجّ شرب من ماء زمزم ثلاث شربات وسأل الله تعالى آخذًا بالحديث: "ماء زمزم لما شرب له "ثلاث حاجات: أن يُحَدّث بتاريخ بغداد، وأن يُملي الحديث بجامع المنصور، وأن يدفن عند قبر بشر الحافي فاستجاب الله له فيها جميعًا. خرج إلى صور وبها عز الدولة الذي كان أحد الأجواد، فأحسن صلته وأعطاه مالا كثيرًا، وصنف ما ينيف على خمسين مصنفًا من العلوم المختلفة.

وقد ذكر القصة الإمام ابن عساكر رحمه الله قائلا: سمعت أبا عبد الله الحسين بن محمد البلخي يحكي عن بعض شيوخه وأظنه أبا الفضل بن خيرون أن أبا بكر الخطيب كان يذكر أنه لما حج شرب من ماء زمزم ثلاث شربات وسأل الله عز وجل ثلاث حاجات آخذا بقول رسول الله (ﷺ) ماء زمزم لما شرب له.

- **فالحاجة الأولى:** أن يحدث بتاريخ بغداد ببغداد.
- **والثانية:** أن يملي الحديث بجامع المنصور.
- **والثالثة:** أن يدفن إذا مات عند قبر بشر الحافي.

فلما عاد إلى بغداد حدث بالتاريخ بها ووقع إليه جزء فيه سماع الخليفة القائم بأمر الله فحمل الجزء ومضى إلى باب حجرة الخليفة وسأل أن يؤذن له في قراءة الجزء، فقال الخليفة هذا رجل كبير في الحديث وليس له إلى السماع مني حاجة ولعل له حاجة أراد أن يتوصل إليها بذلك فسلوه ما حاجته، فسئل فقال حاجتي أن يؤذن لي أن أملي بجامع المنصور، فتقدم الخليفة إلى نقيب النقباء بأن يؤذن له في ذلك فحضر النقيب وأملى الخطيب في جامع المنصور.

ولما مات أرادوا دفنه عند قبر بشر فجرى في ذلك ما ذكر شيخنا أبو البركات إسماعيل بن أبي سعد الصوفي المعروف بشيخ الشيوخ، قال لما توفي أبو بكر الخطيب الحافظ أوصى أن يدفن إلى جانب بشر بن الحارث رحمه الله وكان الموضع الذي بجنب بشر قد حفر فيه أبو بكر أحمد بن علي الطريثيثي قبرا لنفسه وكان يمضي إلى ذلك الموضع ويختم فيه القرآن ويدعو فمضى على ذلك عدة سنين، فلما مات الخطيب سألوه أن يدفنوه فامتنع وقال هذا قبري قد حفرته وختمت فيه عدة ختمات لا أمكن أحدا من الدفن فيه وهذا مما لا يتصور، فانتهى الخبر إلى والدي رحمه الله فقال له يا شيخ لو كان بشر بن الحارث الحافي في الأحياء ودخلت أنت والخطيب عليه أيكما كان يقعد إلى جانبه أنت أو الخطيب؟ قال لا بل الخطيب فقال كذا ينبغي أن يكون في حالة الممات فإنه أحق به منك فطاب قلبه ورضي بأن يدفن الخطيب في ذلك الموضع فدفن فيه(٧).

ومن مناقبه كذلك؛ ما ورد عن الإمام أبي زكريا التبريزي رحمه الله أنه قال: "كنت أقرأ على الخطيب بحلقته بجامع دمشق كتب الأدب المسموعة له وكنت أسكن منارة الجامع فصعد إليّ وقال: أحببت أن أزورك فتحدثنا ساعة ثم أخرج ورقة وقال: الهدية مستحبة اشترِ بهذه أقلامًا وقام فإذا خمسة دنانير؛ ثم صعد نوبة أخرى ووضع نحوًا من ذلك، وكان إذا قرأ الحديث يسمع صوته في آخر الجامع، كان يقرأ معربًا صحيحًا"(٨).

ثانيا: ثناء العلماء عليه:

قد ورد في ثناء العلماء على الخطيب البغدادي الشيء الكثير، مما يصعب حصره والإحاطة به، فكل من ترجم له من المتقدمين أورد في ترجمته العدد الكثير من أقوال العلماء وثنائهم عليه وتعظيمهم لشأنه، وشهادتهم له بتبحره في العلوم وتمكنه فيها خصوصا علوم السنة والتاريخ.

ويعتبر علم التاريخ من جملة العلوم التي برع فيها الخطيب البغدادي وثبتت مكانته فيها، فله باع كبير فيه، واطلاع واسع عليه، ومن جملة الأدلة التي تدل على أهمية أن يكون في

تاريخنا الإسلامي أناس أمناء وقفوا أنفسهم لحمل هذا العلم وتدوينه وصيانته، ما ذكر في أكثر من كتاب من أن اليهود من أهل خيبر أظهروا في زمن الخطيب البغدادي كتابًا يدعون أنه من رسول الله ﷺ، وأنه فيه إسقاط للجزية عنهم، وادعوا أنه بخط علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأن فيه شهادة معاوية بن أبي سفيان وسعد بن معاذ، فوقف الخطيب البغدادي على هذا الكتاب وعرف أنه مزور ومكذوب، ولما طلب منه الدليل على ذلك قال: لأن فيه شهادة معاوية بن أبي سفيان ولم يكن أسلم يوم خيبر بل بعد ذلك يوم الفتح، وفيه شهادة سعد بن معاذ، وقد مات قبل خيبر عام الخندق سنة خمس للهجرة، فاستحسن الناس منه ذلك وأقروا بعلمه ومكانته(٩).

ولم يقتصر تبحر الإمام الخطيب على التاريخ الذي بلغ فيه مبلغًا عظيمًا، بل إلى جانب ذلك حصّل من علم الحديث الشريف ما جعله حافظًا كبيرًا، مما دعا الإمام أبا إسحٰق الشيرازي إلى أن يشبهه بالدار قطني، وقال فيه مؤتمن الساجي: "**ما أخرجت بغداد بعد الدار قطني مثل الخطيب البغدادي**"، هذا بالإضافة إلى اطلاعه بالأدب إذ كان فصيح اللهجة أديبًا شاعرًا سمع منه بعض الشعر في الحكم والمواعظ(١٠).

وقد حلاه ياقوت الحموي بقوله: "الفقيه الحافظ أحد الأئمة المشهورين المصنفين المكثرين، والحفاظ المبرزين، ومن ختم به ديوان المحدّثين"(١١).

وقال عنه الحافظ شمس الدين الذهبي في "سير أعلام النبلاء"عند ترجمته له، مثنيًا عليه الثناء الجميل، ومبيا مكانته العظيمة في الحديث الشريف واصفا إياه بـــ: "الإمام الأوحد العلامة المفتي الحافظ الناقد، محدث الوقت أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت ابن أحمد بن مهدي البغدادي، صاحب التصانيف وخاتمة الحفاظ...، وكتب الكثير، وتقدم في هذا الشأن، وبذ الأقران، وجمع وصنف وصحح، وعلل وجرح، وعدل وأرخ وأوضح، وصار أحفظ أهل عصره على الإطلاق"(١٢).

كما نقل الذهبي رحمه الله أقوالا لأئمة كبار أثنوا الثناء الجميل على الإمام الخطيب البغدادي رحمه الله ومن أولئك الأعلام؛ الإمام ابن ماكولا رحمه الله فقد قال في حقه: "كان أبو

بكر آخر الأعيان ممن شاهدناه معرفة وحفظًا وإتقانًا، وضبطًا لحديث رسول الله ﷺ وتفننًا في علله وأسانيده، وعلمًا بصحيحه وغريبه وفرده ومنكره ومطروحه، ولم يكن للبغداديين بعد الدارقطني مثله. وسألت أبا عبد الله الصوري عن الخطيب وأبي نصر السّجزي: أيهما أحفظ؟ ففضل الخطيب تفضيلًا بيّنًا".

وقال أبو سعد السمعاني: "كان الخطيب مهيبًا وقورًا ثقة متحببًا حجة حسن الخط كثير الضبط فصيحًا ختم به الحفاظ". وقال: "سمعت من ستة عشر من أصحابه سمعوا منه ببغداد سوى نصر الله المصيصي فسماعه منه بدمشق، وسوى يحيى بن علي الخطيب فسماعه منه بالأنبار، أبو محمد بن الآبنوسي: سمعت الخطيب يقول: **(كل من ذكرت فيه أقاويل الناس من جرح وتعديل فالتعويل على ما أخرت)**.

وقال ابن شافع: "خرج الخطيب فقصد صور وبها عز الدولة أحد الأجواد وتقرب منه فانتفع به وأعطاه مالًا كثيرًا، انتهى إليه الحفظ والإتقان والقيام بعلوم الحديث" .قال شجاع الذهلي: "والخطيب إمام مصنف حافظ لم يدرك مثله".قال سعيد المؤدب: قلت للخطيب عند لقائي له: "أنت الحافظ أبو بكر؟ فقال: أنا أحمد بن علي الخطيب، انتهى الحفظ إلى الدار قطني. قال ابن الآبنوسي: كان الخطيب يمشي وفي يده جزء يطالعه؛ وقيل: كان الخطيب يقول: من صنف فقد جعل عقله على طبق يعرضه على الناس"[١٣].

وقال الإمام ابن العماد الحنبلي واصفا إياه بأنه:" أحد الأئمة الأعلام، وصاحب التآليف المنتشرة في الإسلام، وأشهرها تاريخ بغداد، والكفاية في علم الرواية... وغير ذلك من المصنفات. وقال أبو علي البرداني: لعلّ الخطيب لم ير مثل نفسه. وقال أبو الحسن الهمذاني: مات هذا العلم بوفاة الخطيب، وقد كان رئيس الرؤساء تقدم إلى الوعاظ والخطباء ألّا يرووا حديثا حتى يعرضوه على أبي بكر"[١٤].

ووصفه الحافظ والمؤرخ الكبير الإمام ابن عساكر الدمشقي بقوله: "الخطيب البغدادي الفقيه الحافظ أحد الأئمة المشهورين والمصنفين المكثرين والحفاظ المبرزين ومن ختم به ديوان

المحدثين. ثمذكر عن أبي نصر علي بن هبة الله الحافظ قوله:"إن أبا بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي كان آخر الأعيان ممن شاهدناه معرفة وإتقانا وحفظا وضبطا لحديث رسول الله (ﷺ) وتفننا في علله وأسانيده وخبرة برواته وناقليه وعلما بصحيحه وغريبه وفرده ومنكره وسقيمه ومطروحه ولم يكن للبغداديين بعد أبي الحسن علي بن عمر الدارقطني رحمه الله من يجري مجراه ولا قام بعده منهم بهذا الشأن سواه وقد استفدنا كثيرا من هذا اليسير الذي نحسنه به وعنه وتعلمنا شطرا من هذا القليل الذي نعرفه بتنبيهه ومنه فجزاه الله عنا الخير ولقاه الحسنى ولجميع مشايخنا وأئمتنا ولجميع المسلمين"[١٥].

الفقرة الرابعة: مؤلفاته

للخطيب البغدادي مؤلفات كثيرة جدا يصعب حصرها فيها المطبوع والمخطوط، فقد عرف بغزارة الإنتاج وكثرة التأليف، وصفه صاحب الشذرات بأنه: "صاحب التآليف المنتشرة في الإسلام، وأشهرها تاريخ بغداد، والكفاية في علم الرواية... **وقال ابن الأهدل:** تصانيفه قريب من مائة مصنف في اللغة وبرع فيها، ثم غلب عليه الحديث والتأريخ"[١٦].

ذكر منها الإمام ابن الجوزي في كتابه؛ (المنتظم) ستة وخمسين، ونقلها عنه ياقوت الحموي في (معجم الأدباء)، يقثول الإمام ابن الجوزي رحمه الله: "وله ستة وخمسون مصنفا بعيدة المثل، منها: كتاب تاريخ بغداد، كتاب شرف أصحاب الحديث، كتاب الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، كتاب الكفاية في معرفة علم الرواية... إلى أن قال ابن الجوزي: فهذا الذي ظهر لنا من مصنفاته، ومن نظر فيها عرف قدر الرجل وما هيّء له مما لم يهيأ لمن كان أحفظ منه كالدار قطني وغيره"[١٧].

وبالجملة فقد كانت مؤلفات الخطيب البغدادي تنيف على الخمسين مؤلفًا. وقد جعلها أبو سعد السمعاني ستة وخمسين، أشهرها: "الفقيه والمتفقه"، "الجامع"، "السابق واللاحق"، "المتفق والمفترق"، "الموضح"، "الاحتجاج بالشافعي"، "البسملة وأنها من الفاتحة"، "أسماء المدلسين"،

"تقييد العلم"، "القول في النجوم"، "النهي عن صوم يوم الشك". **وأشهرها كتابه في التاريخ: "تاريخ بغداد"، وكتابه في علم الحديث: "الكفاية في علم الرواية".**

وفاته: ذكر الإمام مكي الرميلي رحمه الله أن الحافظ المؤرخ الخطيب البغدادي: مرض في رمضان من سنة ثلاث وستين في نصفه إلى أن اشتد به الحال في أول ذي الحجة ، ومات يوم سابعه وأوصى إلى أبي الفضل بن خيرون ووقف كتبه على يده وفرق ماله في وجوه البر وشيعه القضاة والخلق، وأمهم أبو الحسين بن المهتدي بالله ودفن بجنب بشر الحافي. قال ابن خيرون: دفن بباب حرب وتصدق بماله وهو مائتا دينار وأوصى بأن يتصدق بثيابه. وقال عبد العزيز الكتاني: ورد كتاب جماعة أن الحافظ أبا بكر مات في سابع ذي الحجة، وكان أبو إسحاق الشيرازي ممن حمل جنازته[١٨].

المحور الثاني–قراءة في جهود الخطيب البغدادي وإبراز منهجه والوقوف مع نماذج من مصنفاته

أبدع الإمام الخطيب البغدادي في التأليف في الحديث وعلومه أيما إبداع، فقل فن من فنونه لا تجد له فيه مساهمة، فإذا ذكر المحدثون كان الخطيب واسطة عقدهم، فله القدح المعلى في هذا الشأن ولا يشق له غبار فيه، وقد حُقَّ للحافظ ابن حجر وهو من هو في هذا الشأن، أن يصفه بوصف جامع فيه بيان لمنزلته وقدره، فقد قال رحمه الله عند عرضه للمحة تأريخية لعلم مصطلح الحديث: "ثمَّ جاء بعدَهم الخطيبُ أبو بكرٍ البَغْدَاديُّ، فصنَّف في قوانينِ الرواية كتاباً سمَّاه؛ "الكفايةَ"، وفي آدابِها كتاباً سمَّاه؛ "الجامعَ لآداب الشَّيْخِ والسَّامِع". وقلَّ فنٌّ من فنون الحديث إلاَّ وقد صنف فيه كتاباً مُفْرَداً، فكانكما قال الحافظُ أبو بكر بنُ نُقْطَةَ: (كلُّ من أَنْصَفَ علم أَنَّ المحدِّثين بعد الخطيب عيالٌ على كتبه)"[١٩].

وإذا أردنا أن نبرز جهود هذا الإمام الكبير في مجال علوم الحديث فينبغي أن نقف مع أهم مؤلفاته في هذا الشأن، فمن خلالها يمكننا استخلاص منهجه واستنباط اختياراته العلمية

الحديثية، وتوضيح معالم مدرسته التي تتلمذ فيها عمالقة المحدثين بعده، مصداقا للمقولة السابقة؛ (كل من أتى بعده عيال على كتبه).

ومؤلفات الخطيب البغدادي في علوم الحديث كثيرة ومتنوعة، فلم تكن قليلة كمّاً، ولا ضئيلة حجما، ولا مقتصرة على نوع معين دون غيره، بل اتسعت مجالاتها وتنوعت فنونها، فما مِن فن من فنون علم الحديث ومصطلحه إلا وتجد له فيه مساهمة، وفي هذه الورقات سأحاول الوقوف بشيء من التفصيل مع جل من مؤلفاته في علوم الحديث:

أولا– كتاب؛ (الكفاية في علم الرواية) المنهج والمضمون

*– سبب تأليفه للكتاب ومقصوده منه

افتتح الإمام الخطيب هذا الكتاب العظيم الفائدة العميم النفع بمقدمة بين فيها غرضه ومقصوده من تأليف هذا الكتاب، فبعد البسملة والحمدلة بين وجوب طاعة الله ورسوله والأخذ بالسنة، وأهمية المحدثين المشتغلين بالحديث وعلومه، ثم بين بإجمال محتويات كتابه بقوله: "وأنا أذكر بمشيئة الله تعالى وتوفيقه في هذا الكتاب ما بطالب الحديث حاجة إلى معرفته، وبالمتفقه فاقة إلى حفظه ودراسته، من بيان أصول علم الحديث وشرائطه، وأشرح من مذاهب سلف الرواة والنقلة في ذلك ما يكثر نفعه وتعم فائدته، ويستدل به على فضل المحدثين واجتهادهم في حفظ الدين، ونفيهم تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، ببيان الأصول من الجرح والتعديل، والتصحيح والتعليل، وأقوال الحفاظ في مراعاة الألفاظ، وحكم التدليس والاحتجاج بالمراسيل، والنقل عن أهل الغفلة ومن لا يضبط الرواية، وذكر من يرغب عن السماع منه لسوء مذهبه، والعرض على الراوي، والفرق بين قول «حدثنا» وأخبرنا «وأنبأنا»، وجواز إصلاح اللحن والخطأ في الحديث، ووجوب العمل بأخبار الآحاد، والحجة على من أنكر ذلك، وحكم الرواية على الشك وغلبة الظن، واختلاف الروايات بتغاير العبارات، ومتى يصح سماع الصغير، وما جاء في المناولة وشرائط صحة الإجازة والمكاتبة، وغير ذلك مما يقف عليه من تأمله، ونظر فيه إذا انتهى إليه، وبالله أستعين وهو حسبي ونعم الوكيل"(٢٠).

*** – محتويات الكتاب**

اشتمل على ما يقارب من مائة وأربعين بابا، يقدم لكل باب بما يناسب المقام، ويورد تحته ما يرتبط به من نصوص وآثار حديثية، وأما الروايات فإن كانت واضحة تفي بالغرض يكتفي بإيرادها دونما تعليق أو تعقيب، وأحيانا يعلق ليجلي القصد من الأثر المروي في هذا الباب شارحا عباراته أو معرفا بمصطلحات أهل الفن المستعملة في كتب هذا الشأن. ثم عقد بابا، في وجوب العمل بالسنة؛ (باب ما جاء في التسوية بين حكم كتاب الله تعالى وحكم سنة رسول الله ﷺ، في وجوب العمل ولزوم التكليف)، وبابا؛ (في تخصيص السنن لعموم محكم القرآن وذكر الحاجة في المجمل إلى التفسير والبيان)، وبابا؛ (للكلام في الأخبار وتقسيمها الخبر)، وبابا؛ (في الرد على من قال: يجب القطع على خبر الواحد بأنه كذب)، إلى غير ذلك من الأبواب الكثيرة في هذا الكتاب.

وقَصْد إبراز نماج من مهجه في تقريره للموضوعات التي يعالجها داخل هذه الأبواب، أورد جملة من النماذج على ذلك:

أ. فهو أحيانا يعنون الباب ثم يفتتح الكلام مباشرة بإيراد الروايات المتعلقة به:ومن الأمثلة الدالة على هذا الأمر ما فعله في الباب الأول الذي عنونه بقوله: **(باب ما جاء في التسوية بين حكم كتاب الله تعالى وحكم سنة رسول الله ﷺ، في وجوب العمل ولزوم التكليف)**، ثم افتتحه بدون تمهيد، موردا الأثر مباشرة قائلا: أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي... وفي الختام أيضا لم يعقب بشيء، نظرا لوفاء الأحاديث والآثار التي أوردها بالغرض دونما حاجة إلى شرح أو تعقيب.

ب. وأحيانا أخرى وأحيانا أخرى يمهد للاثر الذي سيرويه بما يناسب المقام: وذلك عند ما يكون الباب المعقود في حاجة إلى شرح وتفصيل وبيان تعليق، تبرز هناك شخصية الخطيب البغدادي بقوة، ولنضرب مثالا لذلك ففي الباب الذي عقده لتقسيم الخبر إلى متواتر وآحاد، عنون

الباب أولا بقوله؛ **(باب الكلام في الأخبار وتقسيمها)**، ثم عرف الخبر بأنه ما يصح أن يدخله الصدق أو الكذب، وقسمه إلى قسمين: متواتر، وآحاد، معرفا كل واحد منهما ومبينا حكمه.

١. **المتواتر:** وهو ما أخبر به القوم الذين يبلغ عددهم حدا يعلم عند مشاهدتهم بمستقر العادة أن اتفاق الكذب منهم محال، وأن التواطؤ منهم في مقدار الوقت الذي انتشر الخبر عنهم فيه متعذر، وأن ما أخبروا عنه لا يجوز دخول اللبس والشبهة في مثله، وأن أسباب القهر والغلبة والأمور الداعية إلى الكذب منتفية عنهم. **وحكمه:** أنه يقطع بصدقه ويفيد العلم الضروري لسامعه كما يشير لذلك بقوله؛ (فمتى تواتر الخبر عن قوم هذه سبيلهم قطع على صدقه، وأوجب وقوع العلم ضرورة).

٢. **خبر الآحاد:**(هو ما قصر عن صفة التواتر).وحكمه أنه لا يفيد العلم كما بين ذلك؛ (ولم يقع به العلم وإن روته الجماعة).

ثم بين أن الأخبار من حيث هي تنقسم إلى مراتب ثلاث:

أ. **الضرب الأول منها؛ ما يعلم صحته:** (وهو ما يعلم صحته، فالطريق إلى معرفته إن لم يتواتر حتى يقع العلم الضروري به أن يكون مما تدل العقول على موجبه، كالإخبار عن حدوث الأجسام، وإثبات الصانع، وصحة الأعلام التي أظهرها الله عز وجل على أيدي الرسل، ونظائر ذلك، مما أدلة العقول تقتضي صحته، وقد يستدل أيضا على صحته بأن يكون خبرا عن أمر اقتضاه نص القرآن أو السنة المتواترة، أو اجتمعت الأمة على تصديقه، أو تلقته الكافة بالقبول، وعملت بموجبه لأجله.

ب. **الضرب الثاني ضرب منها، ما يعلم فساده:** (وهو ما يعلم فساده فالطريق إلى معرفته أن يكون مما تدفع العقول صحته بموضوعها، والأدلة المنصوصة فيها نحو الإخبار عن قدم الأجسام ونفي الصانع... أو يكون مما يدفعه نص القرآن، أو السنة المتواترة، أو أجمعت الأمة على رده، أو يكون خبرا عن أمر من أمور الدين يلزم المكلفين علمه وقطع العذر فيه، فإذا ورد ورودا لا يوجب العلم من حيث الضرورة أو الدليل علم بطلانه، لأن الله تعالى لا يلزم

المكلفين علما بأمر لا يعلم إلا بخبر ينقطع ويبلغ في الضعف إلى حد لا يعلم صحته اضطرارا ولا استدلالا، ولو علم الله تعالى أن بعض الأخبار الواردة بالعبادات التي يجب علمها يبلغ إلى هذا الحد لأسقط فرض العلم به عند انقطاع الخبر وبلوغه في الوهي والضعف إلى حال لا يمكن العلم بصحته. أو يكون خبرا عن أمر جسيم ونبأ عظيم، مثل خروج أهل إقليم بأسرهم على الإمام أو حصر العدو لأهل الموسم عن البيت الحرام فلا ينقل نقل مثله بل يرد ورودا خاصا لا يوجب العلم، فيدل ذلك على فساده، لأن العادة جارية بتظاهر الأخبار عما هذه سبيله).

من خلال هذا النص يتضح للقارئ أن الإمام الخطيب وضع قواعد علمية متينة لنقد الأخبار ومعرفة صحيحها من سقيمها، فكل خبر وجدت فيه سمة من هذا السمات يحكم برده، وتلكم العلامات نلخصها في الآتي:

– مخالفة الخبر لصريح العقل؛ بحيث تدفع العقول السليمة صحته ووقوع ما ورد في مضمونه.

– مخالفة الخبر لنص القرآن الكريم أو متواتر السنة.

–مخالفة الخبر لما أجمعت عليه الأمة.

–ورود الخبر بأمر من أمور الدين يلزم المكلفين العلم به وقطع العذر فيه، من طريق لا يوجب العلم من حيث الضرورة أو الدليل.

–ورود الخبر بأمر جسيم ونبأ عظيم، – مثل خروج أهل إقليم بأسرهم على الإمام – ورودا خاصا من طريق لا يوجب العلم.

تلكم هي القرائن التي يستدل بها على فساد الخبر ورده، ولعلها قواعد جامعة يمكن اعتبارها منهجا عاما منضبطا، وقوانين ذهبية يوزن بها كل خبر ويحكم برده ما دام مخالفا لهذه المعايير الدقيقة.

ج. الضرب الثالث منها؛ ما لا يعلم صحته من فساده: وهو الذي يجب الوقف عن القطع بكونه صدقا أو كذبا، وهذا الضرب لا يدخل إلا فيما يجوز أن يكون ويجوز ألا يكون، مثل الأخبار التي ينقلها أصحاب الحديث عن رسول الله ﷺ في أحكام الشرع المختلف فيها،

وإنما وجب الوقف فيما هذه حاله من الأخبار لعدم الطريق إلى العلم بكونها صدقا أو كذبا، فلم يكن القضاء بأحد الأمرين فيها أولى من الآخر إلا أنه يجب العمل بما تضمنت من الأحكام إذا وجد فيها الشرائط التي نذكرها بعد...[٢١].

*** – إبراز جملة من آرائه العلمية واجتهاداته الحديثية من خلال كتاب الكفاية في علم الرواية**

١. رأيه في عدالة الصحابة

ينص في معرض حديثه عن عدالة الصحابة على أن كل راو من رواة الحديث يجب البحث عن عدالته كي يقبل حديثه ما عدا صحابة رسول الله ﷺ فقد عدلهم الله ورسوله، هذا مضمن ما ذكره في باب؛ **(ما جاء في تعديل الله ورسوله للصحابة، وأنه لا يحتاج للسؤال عنهم، وإنما يجب ذلك فيمن دونهم)**، مفتتحا الباب بقاعدة ذهبية جليلة في موضوع عدالة الرواة بقوله؛ "كل حديث اتصل إسناده بين من رواه وبين النبي ﷺ، لم يلزم العمل به إلا بعد ثبوت عدالة رجاله، ويجب النظر في أحوالهم، سوى الصحابي الذي رفعه إلى رسول الله ﷺ، لأن عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم، واختياره لهم في نص القرآن"، مستدلا على ذلك بجملة من نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة...[٢٢].

٢. هل ثبت سماع النعمان بن بشر رضي الله عنه من رسول الله ﷺ؟

ففي تعقيبه على الخلاف الواقع في سماع الصحابي الجليل النعمان بن بشير من رسول الله ﷺ، حيث على على قول يحيى: "وأهل المدينة ينكرون أن يكون النعمان بن بشير سمع من النبي ﷺ" فيعقب الإمام الخطيب عليه قائلا: "قد أثبت له السماع كافة الأئمة من أهل النقل، فلا اعتبار بنفي من نفى ذلك"[٢٣].

٣. هل رواية الثقة عن غيره تعتبر تعديلا له؟

باب ذكر الحجة على أن رواية الثقة عن غيره ليست تعديلا له احتج من زعم أن رواية العدل عن غيره تعديل له، بأن العدل لو كان يعلم فيه جرحا لذكره ، وهذا باطل ، لأنه يجوز أن يكون العدل لا يعرف عدالته، فلا تكون روايته عنه تعديلا ولا خبرا عن صدقه، بل يروي عنه لأغراض يقصدها، كيف وقد وجد جماعة من العدول الثقات رووا عن قوم أحاديث أمسكوا في بعضها عن ذكر أحوالهم، مع علمهم بأنها غير مرضية، وفي بعضها شهدوا عليهم بالكذب في الرواية وبفساد الآراء والمذاهب)[٢٤].

٤. موقفه من العمل بالحديث المرسل

يذهب الإمام الخطيب البغدادي رحمه الله إلى عدم العمل بالحديث المرسل سواء كان المرسل ثقة أو غيره، لأن الراوي المحذوف قد يكون ثقة عند من وثقه دون غيره من النقاد والحفاظ، وقد أفاض في حشد الأدلة على رد الخبر المرسل، وزبدة رأيه ما نص عليه بقوله: "والذي نختاره سقوط فرض العمل بالمرسل، وأن المرسل غير مقبول، والذي يدل على ذلك: أن إرسال الحديث يؤدي إلى الجهل بعين راويه، ويستحيل العلم بعدالته مع الجهل بعينه، وقد بينا من قبل أنه لا يجوز قبول الخبر إلا ممن عرفت عدالته، فوجب كذلك كونه غير مقبول، وأيضا فإن العدل لو سئل عمن أرسل؟ فلم يعدله لم يجب العمل بخبره إذا لم يكن معروف العدالة من جهة غيره، وكذلك حاله إذا ابتدأ الامساك عن ذكره وتعديله؛ لأنه مع الإمساك عن ذكره غير معدل له فوجب أن لا يقبل الخبر عنه" [٢٥].

وأكتفي هنا بهذه النماذج نظرا لطبيعة البحث، وإلا فإن كتاب الكفاية يمكن تخصيص بحوث عديدة لاستخراج كنوزه وما اشتمل عليه من معارف حديثية، ومصطلحات علمية تأسيسية لهذا العلم.

*** – أثر كتاب الكفاية فيما أتى بعده من كتب مصطلح الحديث**

يتبين من خلال التأمل في كتاب الكفاية للخطيب البغدادي أنه أفاد ممن سبقه من أعلام هذا الشأن كالرامه رموزي والحاكم، ويبرز دوره في انتقاء الروايات، وترتيبها على الأبواب، والإفادة منها في استنباط قواعد الحديث(٢٦).

وقد أصبح كتاب الكفاية أصلا معتمدا لدى كل من ألف بعد الخطيب البغدادي من أهل هذا الشأن، ومن جملتهم القاضي عياض في كتابه الماتع: (الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع)، كما اعتمد عليه الإمام أبو عمرو بن الصلاح اعتمادا كبيرا في مقدمته المشهورة، وقد بين الحافظ ابن حجر مدى اعتماد ابن الصلاح على كتب الخطيب البغدادي بقوله: (واعتنى بتصانيف الخطيبِ المتفرِّقة، (فجمعَ شتات) مقاصِدِها، وضمَّ إِليها من غَيْرِها نُخب فوائِدها، فاجتمع في كتابِه ما تفرَّقَ في غيره)(٢٧).

ولما صار كتاب ابن الصلاح أصلا اعتمدته المؤلفات التي أعقبته، فإن أثر كتاب الكفاية استمر في المؤلفات المتأخرة التي نقلت مادة الكفاية إما بواسطة ابن الصلاح أو من كتاب الكفاية مباشرة(٢٨).

ثانيا– كتاب؛ (الفصل للوصل المدرج في النقل:

إن هذا الكتاب يعد من جملة مؤلفات الخطيب الفريدة المنقطعة النظير، وسأقف مع بيان ملامح من منهجه في هذا الكتاب:

بدأ الخطيب كتابه بمقدمة قال فيها: (هذا كتاب ذكرت فيه أحاديث يشكل شأنها على جماعة من أصحاب الحديث والأثر، ويخفى مكانها على غير واحد من أهل المعرفة والبصر).

فمنها ما يلتبس على العالم الجليل القدر فضلًا عن المتعلم القليل الخبر:

١. منها أحاديث وصلت متونها بقول رواتها وسيق الجميع سياقة واحدة، فصار الكل مرفوعًا إلى النبي ﷺ.

٢. ومنها ما كان متن الحديث عند راويه بإسناد غير لفظة منه أو ألفاظ فإنها عنده بإسناد آخر، فلم يبين ذلك بل أدرج الحديث وجعل جميعه بإسناد واحد.

٣.ومنها ما ألحق بمتنه لفظة أو ألفاظ ليست منه، وإنما هي من متن آخر.

٤.ومنها ما كان بعض الصحابة يروي متنه عن صحابي آخر عن رسول الله ﷺ، فوصل بمتن يرويه الصحابي الأول عن رسول الله ﷺ.

٥.ومنها ما كان يرويه المحدث عن جماعة اشتركوا في روايته فاتفقوا غير واحد منهم خالفهم في إسناده، فأدرج الإسناد وحمل على الاتفاق.

فذكرت جميع ذلك، وشرحته وبينته وأوضحته. هذه أقسام المدرج عند الخطيب في هذا الكتاب وهي خمسة أقسام[٢٩].

ولعل الخطيب البغدادي أول من أفرد المدرج بالتأليف في مصنف خاص به، وقد أثنى عليه ابن الصلاح على الكتاب عند حديثه عن النوع العشرين من أنواع علوم الحديث في مقدمته التي خصصه لتفصيل الكلام عن الحديث المدرج بقوله؛ (وهذا النوع قد صَنَّفَ فيه " الخطيبُ أبو بكر " كتابه الموسوم بـ (الفَصل للوصلِ المُدرَج في النقلِ) فشَفَى وكفى)[٣٠].

ثالثا– كتاب؛ (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي)

يعتبر هذا الكتاب من مؤلفات الإمام الخطيب العظيمة، التي اختصت بجانب جليل من جوانب مصطلح الحديث الذي قل من ألف فيه، فهذا الكتاب جاء ليبرز جملة من أخلاق شيوخ الحديث، وآداب طلابه، وهو موضوع فريد من نوعه.

*** – سبب تأليفه للكتاب**

بين في مقدمته سبب تأليفه لهذا الكتاب بقوله: أما بعد: فقد ذكرت في كتاب "شرف أصحاب الحديث" ما يحدو ذا الهمة على تتبع آثار رسول الله ﷺ، والاجتهاد في طلبها، والحرص على سماعها، والاهتمام بجمعها والانتساب إليها. ولكل علم طريقة ينبغي لأهله أن يسلكوها، وآلات يجب عليهم أن يأخذوا بها ويستعملوها. وقد رأيت خلقا من أهل هذا الزمان ينتسبون إلى الحديث، ويعدون أنفسهم من أهله المتخصصين بسماعه ونقله، وهم أبعد الناس مما يدعون، وأقلهم معرفة بما إليه ينتسبون، يرى الواحد منهم إذا كتب عددا قليلا من الأجزاء، واشتغل بالسماع برهة يسيرة من الدهر، أنه صاحب حديث على الإطلاق، ولما يجهد نفسه ويتعبها في طلابه، ولا لحقته مشقة الحفظ لصنوفه وأبوابه[٣١].

* – **محتوياته:** اشتمل الكتاب على ثلاث وثلاثين بابا، وتحت كل باب توجد مجموعة من العناوين التي تعتبر فصولا للأبواب، وتبلغ ١٢٣، عقد الباب الأول؛ لبيان وجوب إخلاص النية في طلب الحديث وإخلاص القصد لله تعالى، وجاء الباب الثاني؛ في ذكر ما ينبغي للراوي والسامع أن يتميزا به من الأخلاق الشريفة، إلى آخر أبواب الكتاب، وتحت كل باب منها يذكر ما ارتبط به من آثار..

رابعا – كتاب؛ (شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي)

اشتمل الكتاب على بيان فضل أهل الحديث، وذكر شرف السامعين لحديث النبي صلى الله عليه وسلم والمشتغلين به، مفتتحا هذا الكتاب بمقدمة يبدو منها أنه ألف هذا الكتاب إجابة لسائل سأله وطالب طلبه، وهذه كانت هي عادة المتقدمين من الأئمة والأعلام، لا يؤلفون من أجل التأليف فحسب، بل يصنفون للحاجة التي تدعو إلى التصنيف لمعالجة قضايا عصرهم، والإجابة عن أسئلة وقتهم.

يقول الإمام الخطيب في مقدمة الكتاب: أما بعد: وفقكم الله لعمل الخيرات وعصمنا وإياكم من اقتحام البدع والشبهات، فقد وقفنا على ما ذكرتم من عيب المبتدعة لأهل السنن والآثار

وطعنهم على من شغل نفسه بسماع الأحاديث وحفظ الأخبار، وتكذيبهم بصحيح ما نقله إلى الأمة الأئمة الصادقون، واستهزائهم بأهل الحق فيما وضعه عليهم الملحدون الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون، وليس ذاك عجيبا من متبعي الهوى ومن أضلهم الله عن سلوك سبيل الهدى، ومن واضح شأنهم الدال على خذلانه مصدوفهم عن النظر في أحكام القرآن، وتركهم الحجاج بآياته الواضحة البرهان، واطراحهم السنن من ورائهم، وتحكمهم في الدين بآرائهم، فالحدث منهم منهوم بالغزل وذو السن مفتون بالكلام والجدل، قد جعل دينه غرضا للخصومات وأرسل نفسه في مراتع الهلكات ومناه الشيطان دفع الحق بالشبهات، إن عرض عليه بعض كتب الأحكام المتعلقة بآثار نبينا عليه أفضل السلام نبذها جانبا وولى ذاهبا عن النظر فيها يسخر من حاملها وراويها معاندة منه للدين وطعنا على أئمة المسلمين، ثم هو يفتخر على العوام بذهاب عمره في درس الكلام ويرى جميعهم ضالين سواه، ويعتقد أن ليس ينجو إلا إياه لخروجه زعم عن حد التقليد وانتسابه إلى القول بالعدل والتوحيد، وتوحيده إذا اعتبر كان شركا وإلحادا لأنه يجعل لله من خلقه شركاء وأندادا وعدله عدول عن نهج الصواب إلى خلاف محكم السنة والكتاب..."[٣٢].

من خلال هذا النص الوارد في مطلع الكتاب ومقدمته يبدو جليا أن الإمام الخطيب البغدادي رحمه الله قصد بتأليف هذا الكتاب الرد على أحد الطاعنين في أهل الحديث، **والغالب أن هذا الطاعن كان من المعتزلة لوصفه إياه في النص المتقدم بـــ (انتسابه إلى القول بالعدل والتوحيد).**

إن الخطيب البغدادي رحمه الله يعتبر إماما من أئمة الحديث، وحافظا من حفاظه الكبار، وناقدا من نقاده العظام، له مؤلفات تنبئ عن مكانته وتقدمه وعلو كعبه في الحديث وعلومه، منها ما سبق الوقوف عنه ومنها الكثير غيرها مما يتعذر في هذا البحث القصير استعابها والوقوف معها جميعها، لأن ذاك يحتاج لمؤلف خاص موسع يخصص للحديث عن الخطيب البغدادي وبيان جهوده في خدمة الحديث وعلومه، فهو إمام قل نظيره، وعالم بالسنة لم يجُد الزمان بكثير من أمثاله، رحمه الله واكرم مثواه. والله أعلى وأعلم.

الخاتمة

سأحاول في هذه الخاتمة أن أبرز أهم الخلاصات والاستنتاجات المتوصل إليها من خلال هذا البحث القصير والمتواضع في الآن نفسه، الذي آمل أن يكون فاتحة للبحث حول شخصية الخطيب البغدادي الفذة، وإبراز مكانته العلمية، وجهوده في خدمة السنة النبوية وعلومها، وفيما يلي بيان ذلك:

- لقد أبدع الإمام الخطيب البغدادي رحمها الله أيما إبداع في مجال التأليف في الحديث وعلومه، فقَلَّ فن من فنونه لا تجد له فيه مساهمة، فإذا ذكر المحدثون كان الخطيب واسطة عقدهم، فله القدح المعلى في هذا الشأن ولا يشق له فيه غبار.
- إنه من خلال الوقوف مع أهم مؤلفات هذا الإمام الكبير – الخطيب البغدادي– تبرز لنا جهوده العظيمة في مجال علوم الحديث كما يمكننا استخلاص منهجه واستنباط اختياراته العلمية الحديثية، وتوضيح معالم مدرسته التي تتلمذ فيها عمالقة المحدثين بعده، مصداقا للمقولة السابقة؛ **(كل من أتى بعده عيال على كتبه)**.
- تعتبرمؤلفات الخطيب البغدادي في علوم الحديث كثيرة ومتنوعة، فلم تكن قليلة كَمًّا، ولا ضئيلة حجما، ولا مقتصرة على نوع معين دون غيره، بل اتسعت مجالاتها وتنوعت فنونها، ما من فن من فنون علم الحديث ومصطلحه إلا وتجد له فيه مساهمة.
- يأتي في مقدمة مؤلفاته وطليعتها المتعلقة بعلم الحديث كتابه العظيم والفريد؛ **(الكفاية في علم الرواية)**، وقد اشتمل على ما يقارب من مائة وأربعين بابا، يقدم لكل باب بما يناسب المقام، ويورد تحته ما يرتبط به من نصوص وآثار حديثية، وأما الروايات فإن كانت واضحة تفي بالغرض يكتفي بإيرادها دونما تعليق أو تعقيب، وأحيانا يعلق ليجلي القصد من الأثر

المروي في هذا الباب شارحا عباراته او معرفا بمصطلحات أهل الفن المستعملة في كتب هذا الشأن.

- يتبين من خلال التأمل في كتاب الكفاية للخطيب البغدادي أنه أفاد ممن سبقه من أعلام هذا الشأن كالرامهرموزي والحاكم، ويبرز دوره في انتقاء الروايات، وترتيبها على الأبواب، والإفادة منها في استنباط قواعد الحديث كما أصبح كتاب الكفاية أصلا معتمدا لدى كل من ألف بعد الخطيب البغدادي من أهل هذا الشأن، ومن جملتهم القاضي عياض في كتابه الماتع: (الإلماع...)، كما اعتمد عليه الإمام ابن الصلاح اعتمادا كبيرا في مقدمته المشهورة، ولما صارت أصلا اعتمدته المؤلفات التي أعقبته، فإن أثر كتاب الكفاية استمر في المؤلفات المتأخرة التي نقلت مادة الكفاية إما بواسطة ابن الصلاح أو من كتاب الكفاية مباشرة.
- وللإمام الخطيب البغدادي رحمه الله مؤلفات أخرى غير كتابه الكفاية لا تقل عنه شأنا وعلما؛ منها كتابه: **(الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)**، فهذا الكتاب جاء ليبرز جملة من أخلاق شيوخ الحديث، وآداب طلابه، وهو موضوع فريد من نوعه.
- ومن مؤلفاته أيضا كتابه؛ **(شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي)**: اشتمل هذا الكتاب على بيان فضل أهل الحديث، وذكر شرف السامعين لحديث النبي ﷺ والمشتغلين به.ومنها كتابه؛ **(الفصل للوصل المدرج في النقل)**:ويعد من جملة مؤلفات الخطيب الفريدة المنقطعة النظير. ومن كتبه؛ **(شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي)**:اشتمل على بيان فضل أهل الحديث، وذكر شرف السامعين لحديث النبي ﷺ.

هذا ما تيسر جمعه والوقوف عليه بفضل الله وتوفيقه، والله أعلى وأعلم وهو ولي التوفيق والسداد.

الهوامش

(١) تنظر ترجمته في: فهرست ابن خيِّر الأندلسي: (١٨١)، ووفيات الأعيان لابن خلكان: (١/ ٩٢)، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي: (٤/ ١٣)، والكامل في التاريخ: (١٠/ ٦٨) وسير أعلام النبلاء: (١٨/ ٢٧٠)، وتذكرة الحفاظ: (٣/ ١١٣٥)، كلاهما للذهبي، والبداية والنهاية: لابن كثير (١٢/ ١٠١)، وطبقات الشافعية: للإسنوي (١/ ٩٩)، وطبقات الحفَّاظ للسيوطي: (٤٣٣)، والفكر السامي للحجوي: (٤/ ٣٢٩)، وفيات ابن قنفذ: (٥٦)، وشذرات الذهب لابن العماد: (٣/ ٣١١)، وهدية العارفين للبغدادي: (٥/ ٧٩)، والرسالة المستطرفة للكتاني: (٥٢)تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: ١٢ / ٣٤ – ٣٥، وسير أعلام النبلاء للذهبي: ١٦/ ٤٤٩.

(٢) ينظر: معجم البلدان ليقوت لحموي، دار صادر، بيروت: ١٩٩٥م، ج: ٢/ ص: ٤٥٠.

(٣) تذكرة الحفاظ شمس الدين الذهبي، ط: ١. دار الكتب العلمية بيروت–لبنان: ١٤١٩هـ–١٩٩٨م، ج: ٣/ ص: ٢٢٢.

(٤) تذكرة الحفاظ شمس الدين الذهبي، ط: ١. دار الكتب العلمية بيروت–لبنان: ١٤١٩هـ–١٩٩٨م، ج: ٣/ ص: ٢٢٢.

(٥) تاريخ الإسلام للذهبي؛ ج: ١٠/ ص: ١٧٥.

(٦) المصدر السابق نفسه؛ ج: ١٠/ ص: ١٧٥.

(٧) معجم الأدباء لياقوت الحموي، ج: ١/ ص: ٣٨٥. وتاريخ دمشق لابن عساكر، ج: ٥/ ص: ٣١.

(٨) تذكرة الحفاظ شمس الدين الذهبي، ط: ١. دار الكتب العلمية بيروت–لبنان: ١٤١٩هـ–١٩٩٨م، ج: ٣/ ص: ٢٢٢.

(٩) معجم الأدباء لياقوت الحموي، ج: ١/ ص: ٣٨٦.وسير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، ط: ٣. مؤسسة الرسالة: ١٩٨٥م، ج: ١٨، ص: ٢٧٠.

(١٠) ينظر ذلك فيسير أعلام النبلاء للذهبي، ج: ١٨، ص: ٢٧٠، وما بعدها..ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، ج: ١/ ص: ٣٨٤، وما بعدها.. وغيرهما من المصادر السالفة الذكر..

(١١) معجم الأدباء لياقوت الحموي، ج: ١/ ص: ٣٨٤.

(١٢) سير أعلام النبلاء للذهبي، ج: ١٨، ص: ٢٧٠.

(١٣) سير أعلام النبلاء للذهبي، ج: ١٨، ص: ٢٧٠، وما بعدها..

(١٤) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج: ١/ ص: ٣٩.
(١٥) تاريخ دمشق لابن عساكر، ج: ٥/ ٣١.
(١٦) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج: ١/ ص: ٣٩.
(١٧)المنتظم لابن الجوزي، ج: ١٦/ ص: ١٣٠. ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، ج: ١/ ص: ٣٨٦.
(١٨) تذكرة الحفاظ شمس الدين الذهبي، ط: ١. دار الكتب العلمية بيروت–لبنان: ١٤١٩هـ–١٩٩٨م، ج: ٣/ ص: ٢٢٢.
(١٩) نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر لابن حجر، تحقيق: نور الدين عتر، ط: ٣. مطبعة الصباح، دمشق: ١٤٢١هـ– ٢٠٠٠م. ص: ٣٨.
(٢٠) الكفاية في علم الرواية، ص: ٧.
(٢١)المصدر السابق نفسه: ١٧، فما بعدها بتصرف وتنظيم وإعادة ترتيب.
(٢٢)المصدر السابق نفسه: ٤٧.
(٢٣) المصدر السابق نفسه: ٤٧.
(٢٤) المصدر السابق نفسه: ٨٩.
(٢٥) المصدر السابق نفسه: ٣٨٨.
(٢٦) موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، لأكرم ضياء العمري، ص: ٦١.
(٢٧) نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر لابن حجر، ص: ٤٠.
(٢٨) موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، لأكرم ضياء العمري؛ ص: ٦١.
(٢٩) ينظر؛ كتاب الفصل للوصل المدرج في النقل؛ ج: ١/ ص: ١٠٠. كتاب موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، لأكرم ضياء العمري، ط: . ص: ٦٢. ومقدمة محقق: كتاب الفصل للوصل المدرج في النقل، محمد بن مطر الزهراني؛ ج: ١/ ص: ٤٥.
(٣٠) مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح، مؤلف «علوم الحديث»: هو الإمام ابن الصلاح، ومؤلف «محاسن الاصطلاح»: هو الإمام سراج الدين البلقيني، تحقيق: د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، ط: دار المعارف. ص: ٢٧٨.
(٣١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، ج: ١/ ص: ٧٦.
(٣٢) شرف أهل الحديث للخطيب البغدادي؛ ص: ٣.

قائمة المصادر والمراجع

١. البداية والنهاية: لابن كثير، دار الفكر، (د. ط): ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
٢. تاريخ الإسلام للذهبي، تحقيق: بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط:١، ٢٠٠٣م.
٣. تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط: ١٤٢٢،١هـ/٢٠٠٢م.
٤. تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (بلا. ط): ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
٥. تذكرة الحفاظ شمس الدين الذهبي، دار الكتب العلمية بيروت، ط: ١.١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
٦. الجامع لآداب الراوي واخلاق السامع للخطيب البغدادي، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف-الرياض، (بلا. ط): ١٩٨٩م.
٧. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم، السعادة- بجوار محافظة مصر، (د. ط): ١٩٧٤م.
٨. الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة لمحمد بن جعفر الكتاني، تحقيق: محمد المنتصر بن محمد الزمزمي، دار البشائر الإسلامية-لبنان،ط: ٦.١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
٩. سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط: ٣.١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
١٠. شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، تحقيق: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط: ١.١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
١١. شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي، تحقيق: د. محمد سعيد خطي اوغلي، دار إحياء السنة النبوية-أنقرة، (بلا. ط/ د. خ).
١٢. طبقات الحفَّاظ للسيوطي، دار الكتب العلمية-بيروت، ط: ١.١٤٠٣هـ.
١٣. الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية-بيروت، ط: ١.١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

١٤. الفصل للوصل المدرج في النقل للخطيب البغدادي، تحقيق: محمد بن مطر الزهراني، دار الهجرة، ط: ١.١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

١٥. الكامل في التاريخ لابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان، ط: ١.١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٦. الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي، تحقيق: أبو عبدالله السورقي، إبراهيم حمدي المدني، ط: المكتبة العلمية– المدينة المنورة، (بلا. ط/ د. خ).

١٧. معجم البلدان ليقوت لحموي، دار صادر– بيروت، (بلا. ط): ١٩٩٥م.

١٨. مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح، للإمام ابن الصلاح، ومحاسن الاصطلاح؛ للإمام سراج الدين البلقيني، تحقيق: د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف– مصر، (بلا. ط).

١٩. موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، لأكرم ضياء العمري، دار طيبة، ط: ٢. ١٩٨٥م.

٢٠. نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر لابن حجر، تحقيق: نور الدين عتر، مطبعة الصباح– دمشق، ط٣. ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٢١. وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر–بيروت، (بلا. ط): ١٩٧٩م.

٢٢. معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت الحموي، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١: ١٤١٤هـ–١٩٩٣م.

٢٣. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك للجوزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١: ١٤١٢هـ–١٩٩٢م.